

مكانة اللغة العربية في الجزائر

اللواء / محمد علاق - الجزائر

اللغة عنصر حيوي يضمن التفاهم والترابط بين أفراد المجتمع، وهي وسيلة لضمان توحيد كلمة الأمة في أبعادها الثقافية وعند الدفاع عن كرامتها وهويتها. وبذلك الوحدة استطاع الشعب الجزائري أن يناضل ويحافظ على شخصيته الوطنية وانتمائه العربي الإسلامي، ويكافح الاستعمار بالغالي والنفيس من أجل تحرير وطنه ومعتقداته ولغته وبفضل مجهودات أبناء الجزائر وإخلاصهم في الدفاع عن الوطن واللغة العربية واستطاعوا أن يثبتوا بقاءها سليمة، وكذلك بتعليمها في المساجد والزوايا ومدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين طوال فترة الاحتلال الفرنسي الذي فرضت سلطاته مضايقات على معنويات المعلمين وحضروا على تعليمهم للغة الوطنية.

ورغم ما عانته البلاد من ويلات خلال التسلط الاستعماري الفرنسي الذي اغتال السيادة الوطنية وكان يريد طمس اللغة في دارها ونشر اللغة الفرنسية بدلها لكن كفاح الشعب الجزائري لم يتوقف إلى أن توج بالاستقلال وعادت اللغة العربية إلى عزتها.

كما كانت قبل الاحتلال وتبوءت مكانتها الدستورية وأصبحت اللغة الرسمية للدولة قانونيا وأصبحت من الجزائر تساهم في ضمان التواصل الثقافي والترابط بين الأقطار العربية وتسعى إلى أخذ مكانتها بين اللغات المتطورة ليس في الجانب الأدبي شعرا، ونثرا فقط بل في مبادئ شتى العلوم الأخرى وذلك بفضل مجهودات المعلمين والأساتذة حماة الساهرين على ترقيتها وتطويرها وتعميم استعمالها في جميع الهيئات العمومية والإدارية، ومؤسسات البلاد وفي مقدمة الساهرين على تعبئة المتبعين لتعميمها رئيس وأساتذة المجلس الأعلى للغة العربية الطين ينشطون في لجانة الدائمة لتوجيه عمل المؤسسات.

فالمجلس الأعلى للغة العربية الذي يحيي الذكرى العاشرة لتأسيسه في شهر سبتمبر 2008، يستحق التحية والتقدير على نشاطه المتواصل في تنظيم الندوات والملتقيات العلمية وتوجيه القطاعات والمؤسسات الثقافية والاقتصادية في تطبيق استعمال اللغة العربية، وإقامة ندوات وملتقيات علمية حضرها ضيوف من البلدان الشقيقة والصديقة كما أثمرت المكتبة الوطنية بعدة كتب وعناوين تعالج مواضيع لغوية ولسانية معاصرة تزيد في تدعيم وتثبيت مكانة اللغة العربية وتلفت الانتباه إلى خطورة الألفاظ الأجنبية الفرنسية وغيرها التي أجذت مكانها في اللغة الفصحى وفي العامية وأصبحت تسيء إلى سلامتهما.

ولقد كانت اللغة العربية لغة القرآن متأصلة لدى الشعب في الجزائر منذ الحقبة التاريخية التي وصل فيها الفاتحون إلى بلاد القبائل البربرية في ربوع المغرب في منتصف القرن الهجري الأول، وكانت الجموع المرافقة لعقبة بن نافع الفهري وحسان بن نعمان وموسى بن نصير وغيرهم، قد جاءوا مبلغين الدعوة الإسلامية مبشرين وناشرين لتعاليم الدين الإسلامي ومن بينهم فقهاء كانت غايتهم تعليم أهالي البلاد المغربية القرآن الكريم واللغة العربية ليتمكنوا من فهم أمور دينهم . فمن ذلك الحين بدأت القبائل البربرية المعروفة بالبتر والبرانس وفروعهما المتعددة ومنها: كتامة، صنهاجة، هوار، نفوسة، زناته، ومكناسة، وهم السكان الأصليون في الجزائر، وينسب المؤرخون هؤلاء البربر إلى أصول عربية من الكنعانيين جاءوا قديما إلى شمال إفريقيا عبر طرق التجارة وانقطعت بهم السبل فأقاموا بإفريقيا والكنعانيون من الشعوب السامية مثل الأموريين والكلدانيين وأيضا القبط الرعاة الذين استوطنوا مصر .

فبدأ البربر يتعرفون على القادمين من المشرق وعلى ثقافة الدين الإسلامي وكيفية التعامل بأخلاقه وبهرتهم العدالة الاجتماعية التي جاء بها فلانت نفوسهم للإسلام، واستساغوا اللغة العربية التي زادت المعاني القرآنية رونقا وجمالا في التعبير، فأقبلوا يتعلمونها قراءة وكتابة وبعد فترة قصيرة أصبحوا يتخاطبون ويدونون بها شؤونهم وكل شيء جديد يتعلمونه وأبقوا على تداول لهجاتهم البربرية بالسماع واللفظ الشفوي ولكل جهة من مناطق الوطن أسلوب لهجتها الإقليمي .

وبعد أن خبروا لغة الشرقيين وتقاليدهم وجدوا تقاربا معهم في اللغات وخاصة عند القبائل الرحل وتبين لهم أن القادمين من المشرق ليس لهم طمع لا في الأرض ولا في الأرزاق، بل هدفهم نشر الدعوة الإسلامية حيثما نزلوا وعلموا أن عقبة بن نافع الفهري المتوفى سنة 64 هجرية، قد شق بجيشه طريقه نحو الغرب رغم المقاومة التي واجهته بها القبائل البربرية إلى أن بلغ المحيط الأطلسي ووقف بجواده في ماء شاطئه وقال والله لو علمت أن وراء هذا البحر أرضا يشرك فيها بالله لخضت إليها البحر حتى أنشر بها دينه وقد وجدوا أن عادات العرب مخالفة تماما لتلك التي عند الرومان والبيزنطيين الذين كانوا معهم في معارك مستمرة، فحبذوا التقارب من القادمين من المشرق واستكانوا إليهم كأنما استشعروا فيهم رائحة أجدادهم الأولين فقبلوا التعايش السلمي معهم والتحقوا تطوعا في صفوف المجاهدين وشاركوا في نشر الدعوة الإسلامية في ربوع المغرب وفي الأندلس .

وأصبحوا من حماة اللغة العربية حتى أن أحد شيوخهم ويعرف بالزواوي بن المعطي، قد وضع ألفية في النحو والصرف للحفاظ على سلامة التلفظ بها وجاء بعده ابن مالك ووضع ألفية في نفس المادة وقال فيها فائقة ألفية بن المعطي، وهو بسبق حائز تفضيلا مستوجب ثنائي الجميل .

ومما زاد ازدهار اللغة العربية في المجتمعات البربرية هو حفظهم للقرآن الكريم وكثرة الاستعمال والممارسة والمخاطبة بالألفاظ السليمة في مراسلاتهم والوثائق المدونة .

فاللغة العربية التي نعتز بها ونأمل أن يصل بها علماؤنا، وكتابتنا غالى درجة الإبداع تتطلب السهر على سلامتها من الخلط في الكلام وإدخال الألفاظ الفرنسية وغيرها في المحادثات بالفصحى لأن ذلك ينقص من مستوى موضوع المحادثة، وإذا كان الموضوع يحتاج إلى كلمات تقنية مترجمة من لغة ثقافة أجنبية فلا حرج في ذلك لأن تعامل اللغة العربية مع الثقافات الأخرى في نقل الخبرة والمعرفة أخذوا وعطاء أصبح من ضروريات عصر العولمة

وبما أن اللغة العربية هي القاسم المشترك الأعظم مع كل الأقطار العربية، فالجدير بمجامعنا اللغوية في المشرق والمغرب بدءا من مجمع اللغة في دمشق والقاهرة والزيتونة والمجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر والقزوين في المغرب وكل المؤسسات التي تعنى باللغة العربية جدير بهم أن يمتنوا روابط التعاون والاجتهاد فيما بينهم في انتقاء الألفاظ التقنية وإصدارها في مجلة أو معجم تكون مرجعا للجميع على غرار الأدلة والمعاجم التي أصدرها المجلس الأعلى للغة العربية كمعجم المصطلحات الإدارية والدليل الوظيفي في إدارة الموارد البشرية ودليل المحادثة الطبية ومصطلحات التسيير المالي والمحاسبة ودليل المصطلحات المكتبية وهناك أيضا المجلة التي يصدرها الاتحاد العربي للحديد والصلب الذي تأسس في الجزائر سنة 1971 ومقره في الشارقة وله فروع إقليمية في دمشق والقاهرة ويعمل على تنشيط وتدعيم التعاون والتعارف والمبادلات بين أعضائه في جميع المجالات ومجلته أطلق عليها الصلب العربي تصدر بالعربية والانجليزية الوحيدة في الصحافة العربية التي تعالج صناعة الصلب ولها موقع في الانترنت باللغة العربية .

فعلى المؤسسات التي تعنى باللغة العربية أن تتفق على انتقاء الألفاظ التقنية وإعطائها مسميات عربية وتعميمها عند قراء العربية أينما وجدوا ليتمكن الناطقون بلغة الضاد من استعمال ألفاظ تقنية تسير وتواكب المستوى الثقافي حسب متطلبات العصر وبلغة واحدة وموحدة لجميع العرب .

اللغة العربية في أوطانها بين التحديات والآفاق

أ. د. محمد الينبعي

كلية الآداب سايس - فاس - المغرب

مقدمة

لا يخفى على عاقل اليوم، الدور الكبير الذي تضطلع به اللغة في حياة الأمم والشعوب؛ فهي الوسيلة الفعالة للتواصل والترابط والتوحد بين أجيال الأمة الواحدة المتباعدين في الأمصار والأعصار، وهي وسيلة الإبداع المتميز في الجانب العلمي والأدبي والحضاري، وهي الناقلة لأفكار الناس ورؤاهم من عصر إلى عصر، وهي، فضلا عن كل ما ذكر، سمة من أهم السمات الحضارية التي تميز أمة عن أخرى. يقول الدكتور عبد العلي الودغيري في هذا الصدد:

«واللغة بحكم أنها لا يمكن تصور وجودها إلا وهي مرتبطة بالمجتمع الذي يستخدمها أشد الارتباط، يكون من خصائصها ووظائفها بجانب كونها تسهم في صنع الفكر وتوجيهه وتحديد خصوصياته من مجتمع لآخر، أنها تعد أصدق مؤرخ لحياة هذا المجتمع وحياة ثقافته وحضارته، وذاكرته التي تختزن عنه كل ما يتعلق بعاداته وتقاليده وسلوكه، وإيمانه وكفره، وغناه وفقره، وتعلمه وجهله، وأدبه ومهارته وفنه، بل إنها ذاكرة تحتفظ أيضا بأدق الصور والمعلومات عن حياته اليومية، وعن بيئته ومناخه وطبيعته الحية والميتة. وباختصار كل ما يريد المرء أن يعرف عن هذا المجتمع من تفاصيل قد لا نجد أحيانا من الأدلة على وجودها في وثائق التاريخ ولكننا نجد لها في تضاعيف كلمة من كلمات القاموس اللغوي؛ فانت بمراجعة اللسان العربي في قواميسه القديمة، وتقليبه على وجوهه، تعرف من أحوال العرب القدامى وعقائدهم الجاهلية وأوصاف حياتهم وتفكيرهم ومعيشتهم وبيئتهم في جفافها وقسوتها ما يغنيك عن قراءة ابن خلدون أو ابن الأثير أو غيرهما من مؤرخي العرب الكبار» (1).

ولعل المتتبع لشأن العربية في القرون السالفة، خاصة قرون الشهود الحضاري، حينما كانت للأمة العربية الإسلامية السيادة والريادة، يلاحظ أن هذه اللغة قد قامت بأدوارها على أحسن ما يرام، لكنها اليوم وللأسف الشديد، نراها قد تولت الأدبار، وتراجعت القهقري، ونالت حظا وافرا من الوهن والضعف بسبب التحديات الداخلية والخارجية التي تواجهها كل يوم. ولذلك فقد ارتأيت أن يكون موضوع حديثي في هذا العدد الخاص من مجلتكم -الذي خصصتموه لمشكورين للحديث عن قضايا اللغة العربية: راهنا ومستقبلا هو الحديث عن التحديات المختلفة التي تواجه هذه اللغة في الوطن العربي، وسبل النهوض بها. وسأنظم أفكارها ضمن المحاور التالية:

(1) في الثقافة والهوية، ص 11.

مقدمة عن أهمية اللغة

1- التحديات المختلفة التي تواجه العربية في الوطن العربي

- تحديات في مجال الإعلام
- تحديات في مجال التربية والتعليم
- تحديات في مجال الإدارة المؤسسات العمومية
- تحديات في مجال الاستعمار اليومي

2- مقترحات لتجاوز التحديات :

- تعريب المحيط العام
- دعوة الجامعات اللغوية للقيام بواجبها
- مقترحات أخرى
- الخاتمة

1- التحديات المختلفة التي تواجه العربية في الوطن العربي

1-1 تحديات في مجال الإعلام:

يعتبر هذا المجال من المجالات الحيوية، في الوطن العربي، التي يدخل من بابها الخير والشر. ولعل المتتبع لهذا الشأن يلاحظ أن العربية الفصحى قد دخلها شر كبير من هذا الجانب؛ وذلك ناجم عن الإفراط في استعمال اللغات الأجنبية والد وارج واللغات المحلية، في مختلف وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية. وهذا الأمر يكاد ينطبق على كل بلدان الوطن العربي سواء المغربية منها أم الشرقية.

ففي مجال الإذاعات المسموعة نجد المحطات التي تبث برامجها صباح مساء بالفرنسية أو الإسبانية أو الإنجليزية أو العامية. يقول أحد الصحفيين المغاربة مصورا هذا المشهد المأسوي: «باتت الإذاعات الخاصة بالمغرب تطرح مشكلا في غاية الخطورة، لا يدري المرء معه ما إذا كان حله يدخل ضمن اختصاصات الهيئة العليا للسمعي البصري أم يتعدها ليدخل ضمن صلاحيات الحكومة والبرلمان، وإن كان مؤكدا، مع ذلك، أنه يندرج ضمن اهتمامات الهيئات الثقافية والسياسية المغربية التي يتعين عليها أن تتصدى له بحزم في أفق حله وتجاوزه.

يتعلق الأمر، تحديدا، بما يمكن أن نسميه «فتح المجال لإعادة استعمار المغرب من جديد» حيث إن هذه الإذاعات الخاصة التي تحمل نعت وصفة «مغربية» صارت تفتخر بإعلان تبعيتها للغة والثقافة الفرنسيتين انطلاقا من لغة الحديث والحوار والاختيارات الغنائية، ومرورا بـ «نقل» عدد من البرامج مباشرة من إذاعات فرنسية، وانتهاء بتغطية الحياة الفنية والثقافية والإعلامية بفرنسا دون ذكر اسم هذا البلد، وكأن المستمع المتابع لبرامج هذه الإذاعات يقطن بإحدى المدن أو القرى الفرنسية وليس بمدن المغرب وقراه.

بل ، أكثر من ذلك ، صارت بعض هذه الإذاعات «تعرض» على استعمال اللغة الفرنسية كبديل للغة البلاد الرسمية (كما هي في نص الدستور، الذي لم يتم تغييره بعد في ما نعلم) وهي اللغة العربية .
أما في مجال القنوات الفضائية فالأمر أسوأ وأفدح . ومن أمثلته القريبة البرنامج الذي كان يقدمه صحفي عربي كبير وكاتب قومي شهير على قناة الجزيرة . وقد كان حريصا ألا يتحدث فيه إلا بالعامية ، وكأنما يتحدث فقط إلى أصدقائه وأقاربه في مصر وليس إلى كل العرب ، في مختلف ربوع المعمورة ، وفي ذلك خسارة إعلامية كبيرة للمتحدث وللقناة ذات الطابع العربي الدولي» (1) .
إن هذا التقرير الذي قدمه صاحبه عن حالة العربية الفصحى في مختلف مجالات الإعلام المسموعة والمرئية في المغرب الأقصى ، يمكن تعميمه على عدد كبير من الدول العربية التي سبق لها أن ابتليت بالاستعمار الأجنبي ولم تتخذ بعد قرارا حاسما لصالح التعريب . وهذا يعكس الحالة المزرية التي تعيشها هذه اللغة في أوطانها .

2-1 تحديات في مجال التربية والتعليم :

إن حال اللغة العربية الفصحى في هذا المجال ، لا يقل سواء عن المجال السالف الذكر؛ إذ حالها هنا تدمي له القلوب ، وتفجع من أجله الشكلى نظرا للاهتمام الكبير الذي أصبح يعطى للغات الأجنبية اللهجات المحلية على حسابها . ولعل أكبر دليل على ما نقول هو هذا الإقبال الكبير على مدارس البعثات الأجنبية؛ وكمثال على ذلك فإن نسبة التلاميذ المغاربة المسجلين في مدارس البعثة الفرنسية قد وصل هذه السنة 54٪ مقابل 41٪ للتلاميذ الفرنسيين المقيمين في المغرب . وذلك ناجم عن عدة أسباب أذكر منها ما يلي :

* ترويج الكتاب والمفكرين الأجانب ، ومن تأثر بهم من أبناء جلدتنا لعدة مقولات تحط من شأن العربية ، ومن خريجي مدارسها . فهي في زعم هؤلاء صالحة لأن تكون لغة قصة وأدب وشعر، وغير صالحة لأن تكون لغة طب أو علم أو تجارة أو صناعة . . . إلخ . وقد أدى هذا الأمر إلى عزلها عزلا تاما أثناء تدريس العلوم الحديثة والنظر إليها بأنها لغة متخلفة ، رغم توفرها على كل ما تتوفر عليه كل اللغات الحية من وضوح العبارة ، وسلامة البنيان اللغوي ، والقدرة على التطور ومواكبة المستجدات ، وغيرها من السمات الرائعة والدقيقة التي يعرفها أهل الاختصاص . وإن كان ثمة من عيب فهو لا يرجع إليها ، وإنما يرجع إلى متكلميها ؛ فمن الحقائق المقررة عند علماء اللغة الاجتماعيين أن اللغات تتأثر سلبا وإيجابا بالحالة الاجتماعية التي يكون عليها أصحابها ؛ فتطورها مرتبط بتطورهم ، وضعفها مرتبط بضعفهم . يقول الدكتور عبد العلي الودغيري مقررًا هذه الحقيقة : «إن التجربة والعلم والتاريخ كل ذلك يعلمنا أن اللغة –أية لغة– تضعف بضعف أصحابها وإهمالهم لها وتقوى بقوتهم» .

(1) مصطفى السنوي – جريدة المساء المغربية، عدد: 515.

كل لغة يمكن أن تموت بالإهمال وأن تزدهر بالاستعمال . وما أصاب مسيرة التعريب من نكسات في السابق لم يكن إلا بسبب أن القرار السياسي لم يتخذ لصالح التعريب . ويوم يتخذ القرار الثوري والضروري الذي يؤمن بالفكرة ويعمل على تطبيقها مهما كانت التضحيات، ستبطل كل المزاعم والترهات التي تلصق ظلما بالعربية والتعريب» (1). ورحم الله شاعر العربية حافظ إبراهيم القائل في قصيدته :

أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

* عدم فقه القائمين على أمرها بالأدوار الكبيرة والوظائف المتنوعة التي تقوم بها اللغة في حياة الأمة والشعوب؛ إذ أن معظمهم لا يعرف للغة إلا وظيفة واحدة، وهي وظيفة التواصل والتعبير عن أغراض الناس وحوادثهم . وهذا مخالف تماما لما تقره الدراسات اللغوية الحديثة، التي تؤكد أن للغة عدة وظائف، تعتبر الوظيفة المذكورة من قبل واحدة منها فقط، فاللغة عند هؤلاء العلماء ليست مجرد أداة يتخاطب بها الناس، ولا مجرد تعبير عن الفكر. بل هي إلى جانب ذلك ذات خصائص ووظائف أخرى أهم وأعمق، من أهمها: أنها تسهم في صنع الفكر وتوجيهه وصياغته الصياغة التي تجعله في هذا المجتمع مختلفا عنه في مجتمع آخر يقول الفيلسوف الألماني هرذر موضحا هذا الأمر: « لا يمكن أن نشك في أنها -يقصد اللغة-... هي التي تخلق العقل، أو على الأقل تؤثر في التفكير تأثيرا عميقا، وتسدده وتوجهه اتجاهها خاصا» (2).

ويقول اللغوي الشهير إدوارد سابير مؤكدا الأمر نفسه بعبارة أخرى :

«إن اللغة هي التي تجعل مجتمعا يتصرف ويفكر بالطريقة التي يتصرف ويفكر بها، وأن ذلك المجتمع لا يستطيع رؤية العالم إلا من خلال لغته، وأن تلك اللغة بمفرداتها وتراكيب جملها محددة في ذاتها لنظرة المجتمع المتكلم فيها للعالم والحياة» (3).

* إضعاف معاملها في مختلف الأسلاك المدرسية وعدم العناية بخريجي مدارسها، إذ تعطى كل الامتيازات لخريجي المدارس الأجنبية على مستوى المنح والتوظيف... إلخ فأعداء العربية نسبوا إليها كل شر ورسوموا لخريجها آفاقا مسدودة ومظلمة، في حين نسبوا لضرائرها وعلى رأسهن الفرنسية كل مزية وفضل، ووعدوا خريجي مدارسها بكل أسباب الرزق والسعادة « فطريقها، أي الفرنسية، طريق كل خير ومنحها سخية وجوائزها مريحة وسنية وخبزها نظيف والعمل بها شريف وهي مفتاح الرزق وباب العرفان وهي لغة الماضي والمستقبل ولغة الدين والآخرة إلى آخر الكلام المعسول» (4).

(1) في الثقافة والهوية، ص 145-146، عبد العلي الودغيري.

(2) حصاد الفكر العربي الحديث في اللغة العربية، ص: 123، إعداد جماعة من الأساتذة.

(3) أعضاء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص 220 : نايف خرما (كتاب سلسلة عالم المعرفة التي تصدر بالكويت) إصدار 1978 .

(4) في الثقافة والهوية، ص 145.

* الضغوط التي تفرض على الأمة من قبل التيار الفرانكفوني وصناديق النقد الدولي التي تقدم المعونات والقروض لهذه الدول .

* مزاحمتها بالعديد من اللغات واللهجات، منها الداخلي ومنها الأجنبي، حتى أصبح هذا الخليط اللغوي بمثابة ضرائر لهذه اللغة .

1-3 تحديات في مجال الإدارة :

من التحديات الخطيرة التي تواجهها العربية الفصحى في الوقت الراهن هو عدم إعمالها في المراسلات الإدارية وال رسمية عند كثير من الدول الناطقة بها، رغم صدور عدة مراسيم حكومية، وعدة توصيات من المجمع اللغوية العربية التي توصي بضرورة إعمالها بدل اللغات الأجنبية الأخرى إلا في الحالات القصوى . فإذا نظرنا في الإدارة المغربية مثلاً فسنجد أن معظم مراسلاتها باللغة الفرنسية، هذا ما صرح به الأستاذ موسى الشامي رئيس الجمعية المغربية لحماية اللغة العربية لجريدة التجديد المغربية، حيث قال : إن 90٪ من وثائق الإدارات العمومية المغربية ما تزال تصدر بالفرنسية وهذا رقم مخجل ومخيف ناطق واضح الدلالة لا يحتاج إلى تعليق .

1-4 تحديات العزلة عن الحياة العامة :

لقد ذكرنا، قبل جملة من التحديات التي تواجهها العربية، ويبدو لي أن أخطر هذه التحديات هو إبعادها عن الأعمال في الحياة العامة والخاصة لتكلمها، لأن ذلك يعني الحكم عليها بالفناء .

فقد حلت اللهجات العامية محلها، وأخذت مكانها في ألسنة الناطقين العرب . ونتج عن ذلك نشوء مجموعة اللهجات المحلية، التي تختلف من بلد لآخر داخل القطر الواحد، فإذا كان عدد البلدان العربية اثنتين وعشرين دولة، هي مجموع الأعضاء في جامعة الدول العربية، فإن لدينا اثنتين وعشرين لهجة عامة، تتفرع عنها لهجات بلدية تتميز كل منها عن الأخرى ببعض الخواص الصوتية، ففي مصر - مثلاً - نجد لهجة مشتركة بين جميع المواطنين، ولكن صعيد مصر (الوجه القبلي) له لهجته الخاصة المتميزة، كما أن للدلتا لهجتها المتميزة .

وقد يكون لمواطني الإسكندرية خواصهم اللهجية التي لا تجري على غير ألسنتهم . غير أن مجموع المواطنين في مصر يتفاهمون بالعامية المشتركة التي تتبناها أجهزة الإعلام، وتنشر بها رسالتها، سواء في ذلك الإذاعة والتلفزيون وأفلام السينما .

وهكذا الحال في كل قطر عربي، غير أنهم يقتربون من اللغة الفصحى عند مستوى ثقافي معين، فيخلطون مستوى الفصحى بمستوى العامية، وتنشأ عن ذلك لغة (فصعية)، أي : خليط من الفصحى والعامية، وهذا الخليط يختلف نسبياً من دولة إلى أخرى . وإن

كانت كمية الاختلافات قليلة، نظرًا إلى انتشار وسائل الإعلام التي تستخدم في أحيان كثيرة المستوى (الفصحي).

ولسنا نستطيع أن نتجاهل عاملاً خطيراً من بين عوامل عزل الفصحى، وهو استعمال المشتغلين بالتدريس في مدارس العامة (حتى نهاية المرحلة الثانوية) لللهجات، أو لمستوى رديء من الفصمية.

وأخطر من ذلك تأثيراً استخدام أساتذة الجامعات في الآداب للعامية (اللهجات المحلية)، وليس ذلك من باب المبالغة أو التجني، فنحن لا ننكر وجود أساتذة يحترمون اللغة الفصحى، ويلتزمون بأدائها في محاضراتهم. وفي مقابل هؤلاء نجد بعض من يدرسون مادة (النحو العربي) ويستخدمون اللهجات العامية في مخاطبة الطلاب بقواعد النحو وسائر علوم العربية.

فإذا كانت هذه هي الحال في كليات الآداب، وبخاصة في علوم العربية، فإن الحال أسوأ في سائر الكليات التي تخصص في الفنون والعلوم المختلفة، بحيث لا يسمح للعربية أن تدلف إلى قاعات المحاضرات والبحوث. وربما جاز لنا أن نقول: إن جماهير الأساتذة في علوم الهندسة والطب والحقوق والعلوم والزراعة والفنون التشكيلية، والمواد التربوية... إلخ هؤلاء جميعاً لا يعرفون شيئاً من قواعد العربية الفصحى، وممارسة الحديث بها.

هذا تصوير غير مخل للوضع الذي تواجهه الفصحى في أوطانها العربية، فهي لا تجد لخطواتها مكاناً يسعها، اللهم إلا في بعض خطب الجمعة -على قلتها- فأما مجالات الخطاب الجماهيري، كمجالس النواب والشورى والمجالس القومية المتخصصة فقد أخلصت ولأهها للعامية، وخاصمت الفصحى (1).

2- مقترحات للنهوض بأمر العربية:

إن المتأمل فيما ذكر من قبل يلاحظ أن هذه اللغة تعيش وضعاً معكوساً منكوساً؛ إذ ينطبق عليها قول العرب: «لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس». وعليه فإنه يتعين على الغيورين عليها وعلى الكتاب الذي نزل بها من أهل العلم والمال، والقرار السياسي على السواء البحث عن السبل التي تمكنها من استرجاع عافيتها قبل فوات الأوان. وفي السطور التالية عرض لبعض المقترحات في هذا الباب:

1-2 تعريب المحيط العام:

لقد جرت العادة حينما نتحدث عن التعريب، أن حديثنا عن تعريب التعليم والإدارة والإعلام، وننسى أن تعريب هذه المجالات لا يحقق أهدافه إلا إذا كان مرفقاً بتعريب المحيط

(1) اللغة العربية إلى أين؟ ص 163-164، عبد الصبور شاهين.

الاجتماعي والثقافي والاقتصادي... إلخ؛ وهذا ما أقرّه عدد من الخبراء العارفين بمهالك ومسالك اللغة العربية. يقول الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري في هذا الصدد: «هناك رهان ثان يتعلق بتعريب المحيط، في علاقته بتعريب التعليم العالي، خاصة، والتعليم عامة. فما فهمنا ولا حظنا هو أن المحيط الاقتصادي وقطاعات الشغل تفضل توظيف من يتقن اللغة الأجنبية أو الفرنسية على الخصوص. وهذا التفضيل لا يرجع لكون التكوين باللغة العربية لا يمكن من المعارف، ولكن «لكون المكوّن باللغة الأجنبية له قدرة تواصلية أكبر من المكوّن بالعربية» فيما يبدو. ثم إن التنافسية تفرض على هذا المحيط أن يستعمل اللغة الأجنبية، مما يجعلها لغة الفرص والشغل. فالمكون باللغة العربية يجد نفسه أمام عائق، وتقف أمامه أبواب الشغل. وإذا استمر هذا العائق، فإن نهج سياسة تعددية يضعف حظوظ اللغة العربية، ما دام هناك موقف مسبق منها. بل إن تعريب التعليم العالي يصبح ضارا بمصلحة التلميذ، وفرصه في الشغل، إلخ وهذا المنطق خطير لأنه قد يعمم على الثانوي والتقني بل حتى الأساسي. إن التقليل من وظائف اللغة الوطنية بدعوى التنافسية منطق مغلوط. فأصغر الدول مثل هولندا وفنلندا والسويد وغيرها تعلم بلغتها من الروض إلى الجامعة، وتشتغل بهذه اللغة. وليس الانفتاح على اللغات الأجنبية مدعاة لتفريدها بوظائف لغة العمل في الاقتصاد والاتصال... إلخ. فلا بد من تدخل الدولة، والتشريع اللساني، لحماية اللغة الوطنية، وفرز خطة لغوية ناجعة ومعقولة، لا تقضي على اللغة الوطنية تدريجيا» (1).

2-2 دعوة المجامع اللغوية للقيام بواجبها:

إن المجامع اللغوية العربية تقوم بجهود جبارة من أجل ترجمة المصطلح وتوحيده، لكن الواجب الملقى على عاتقها يفوق ذلك بكثير فالمفروض في كل مجمع - كما يقول الدكتور هيثم الخياط: - «أن يقود ركب التوعية والتنبيه.. وأن يلفت النظر إلى كل مكر خفي يهدف إلى قطع صلة هذه الأمة بلغتها وثقافتها الأصلية.. وأن يبذل جهده الصادق الواعي الفاهم ليجعل من الفصحى لغة التخاطب العامة، وإن بقيت للعامية آثار قليلة متفرقة في طبقات الناس بعد ذلك.. وأن يقول كلمته واضحة صريحة لا يتلجلج ولا يجمع: في لغة التعليم، ولغة التوجيه، ولغة الثقيف... وأن يعرف أبناء هذه الأمة بتراثهم، لا من أجل أن ينتفجوا بهذا التراث، ولكن من أجل أن ينطلقوا منه انطلاقا مبدعا، ويتعلموا من سلفهم كيف يكون الإخلاص للعلم، وكيف يكون المنهج العلمي الصحيح، وكيف ينطلق الفكر المكبل، من كل إسار يجعله يخلد إلى الأرض.. وإنه لواجب - لو تعلمون - عظيم!».

(1) أسئلة التعريب ورهاناته في التعليم العالي بالمغرب وسوريا، ص 22.

3- مقترحات أخرى :

- مطالبة وزارات التربية والتعليم في الوطن العربي بتقوية حصص العربية في مختلف أسلاك التعليم بنوعيه العام والخاص . أسوة بكل الدول المتقدمة التي تعطي الحيز الكافي في برنامجها التعليمي للغتها الأم .
- مطالبة الدول العربية بتفعيل القرارات الصادرة عن اتحاد المجامع اللغوية التي توصي بتعميم العربية واتخاذها لغة رسمية داخل الإدارة والإعلام والتعليم .
- تفعيل كل القرارات الداعية إلى دعم هذه اللغة، ومن جملتها تلك الدعوة الصادرة في ميثاق التربية والتكوين المغربي التي تدعو إلى تأسيس أكاديمية تعنى بأمر هذه اللغة كتابة وقراءة .
- تقوية حصص العربية في المعاهد العليا للصحافة لتخريج إعلاميين متمكنين من هذه اللغة .
- تخصيص برامج إذاعية وتلفزيونية لتقويم اللسان العربي .
- تعريف الخاصة والعامة بالبعد العالمي لهذه اللغة وتمتيع خريجيه بنفس الامتيازات التي يتمتع بها خريجو المدارس الأجنبية .
- فرض رقابة لغوية على كل الملصقات واللافتات التي تعلق في الشوارع وأمام المحلات التجارية أسوة ببعض الدول الرائدة في هذا المجال . وعلى رأسها دولة العراق .
- إعمال المصطلح العربي ووضع جمارك صارمة أمام مرور المصطلحات الأجنبية إلا إذا اقتضت ذلك ضرورة علمية ما .
- إنتاج العلم والمعرفة، إذ لا حياة لهذه اللغة بدون حياة أصحابها .
- التخفيف من وطأة اللهجات واللغات المزاحمة لها وإقناع الناس بأن الدفاع عن العربية هو دفاع عن الأمة ككل ودفاع عن هويتها وليس دفاعا عن جنس بعينه . إذ العربية ليست سمة لعرق مخصوص دون غيره وإنما هي سمة لكل من تكلم بها وقد جاء في الأثر: « من تكلم العربية فهو عربي » .
- تطوير طرق تدريسها كتابة ونطقا .
- الحرص على التكلم بها في جميع الملتقيات والمنتديات الوطنية والدولية أسوة بالأجانب المعتزين بلغتهم . وقد أصبحت الأمم المتحدة اليوم تهدد بحذفها من اللغات الرسمية لأن أهلها لا يتكلمون بها في اللقاءات والمؤتمرات .
- رفع ملتصم إلى النواب والوزراء والفاعلين السياسيين، وكل الجهات المسؤولة في كل الدول العربية يطلب منهم الاهتمام بهذا الأمر وجعله من أولى أولوياتهم السياسي (1) .

(1) في سبيل العربية : ص 10-11 .

خاتمة

إن اللغة العربية بالنسبة للعرب وكل الدول الإسلامية الناطقة بها شرط بقاء ووجود، فهي مصيرهم وقدرهم بوجودها يكتب لهم الوجود والبقاء بدونها لا يكون لهم وجود، وحتى وإن كان هذا الوجود، فلن يكون له شأن يذكر بين باقي الأمم التي تعنى بلغتها القومية. ولا غرابة في ذلك إذ اللغة – كما تقر بذلك الأبحاث اللسانية المعاصرة – وهي محضن ثقافتها ووعاء مقوماتها الحضارية والعلمية والثقافية.

ونظرا لكل هذه الأدوار التي تقوم بها فهي مستهدفة من قبل الذين لا يريدون للعرب والمسلمين رفعة ولا شهودا حضاريا. ولذلك وبناء على كل ما ذكر فإن الاهتمام بالعربية يعتبر اليوم من أولى الأولويات وأؤكد الواجبات على كل محب لوطنه ومعتز بهويته؛ لأن الاهتمام بأمورها أصبح فريضة شرعية وضرورة حضارية وحتمية تاريخية. ألا وإن الناس يتساءلون متى يكون النصر لهذه اللغة ومتى يتم التمكين لها من جديد. قل عسى أن يكون ذلك قريبا وما ذلك على أهل العزم والحزم من أبناء العروبة والإسلام بعزيز.

مراجع البحث :

- أسئلة التعريب ورهاناته في التعليم العالي بالمغرب وسوريا، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، سنة 1999م.
- ندوة التعريب في التعليم العالي: إصدار المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية التابع لوزارة التعليم العالي السورية المطبوعة بتاريخ 2007م.
- التعريب: مؤسساته ووسائله: ممدوح خسارة، مؤسسة الرسالة 1999م.
- في سبيل العربية: محمد هيثم الخياط، مكتبة وهبة 2004م.
- اللغة العربية إلى أين؟ المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالتعاون مع البنك الإسلامي للتنمية، الرباط المغرب 2005م.
- اللغة والبيئة: عبد القادر الفاسي الفهري، منشورات الزمن الكتاب رقم 38 / 2003م.
- ثمانون عاما من الحرب الفرانكفونية ضد الإسلام واللغة العربية: إدريس الكتاني، منشورات نادي الفكر الإسلامي بالرباط المغرب 2000م.
- في الثقافة والهوية: د. عبد العلي الودغيري، دار البوكيلي القنيطرة المغرب 1995م.
- في العربية والقرآن: د. عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب مصر 1998م.